الفصل الثامن
رباطة الجأش

رباطة الجأش هي المعنى الجميل لحسن التصرف والتوازن الروحي عند الأمة اليابانية التي تمتاز بخصال لها طابع قومي تنفرد به عن باقي الشعوب، وقد يدهشك ردة الأفعال لبعض التصرفات في أوقات تعارف عليها الناس، ففي البكاء تجدهم دون سائر الأمم يضحكون من تلك المواقف، وغيرها من الأمثلة التي كثيرا ما تبعث على التساؤل وتوضح فهمهم الخاص لفلسفة رباطة الجأش والهدوء الروحي، ويعتقد البعض أن الشخصية اليابانية فيها شيء من الخشونة والقسوة، ولكن الحقيقة أن الشخصية اليابانية شخصية سوية تماما في التأثر بما حولها من أشياء شأنها في ذلك شأن أي إنسان في أرجاء المعمورة ، ووصفهم أوسكار وايلد (١٨٥٤-١٩٠٠) بقوله "الناس الحقيقيون الذين يعيشون في اليابان لا يختلفون عن عامة الشعب البريطاني" . أي أنهم عاديون جدا وليس فيهم شيء غريب أو شاذ أو استثنائي. وقال في كتاباته عن اليابان "أنها اليابان البسيطة الصافية المعطرة ، فالشخصية اليابانية تحوي

كل ما تحتويه النفس البشرية من شعور جارف وتأثر رقيق وضمير حي إلا أن ردة الأفعال متباينة بين الياباني وغيره من الناس" ، وهذا يدعونا إلى التأمل في هذه القيم التي تربي عليها الياباني في إظهار ميزات الرجولة الصادقة بإخفاء السرور أو الغيظ وكتمان المشاعر التي ألفتها الشعوب الأخرى، وعلى سبيل المثال قبل أن نبدأ الحديث عن فضيلة رباطة الجأش يعتقد الياباني أن تقبيل الأب لابنه أو الزوج لزوجته على مرأى من الناس يعد من الأمور الشائنة والتقاليد المستقبحة خلافا لعادات شعوب أخرى، وقد كتب صحفي أمريكي ملاحظاته عن قطار ياباني كان يقل جيشا لجبهة الحرب الأخيرة مع الصين فقال: توقعت وأنا أتابع مشهد الوداع لهذا القطار من الأم والأخت والحبيبة والابن والجمهور الغفير الذي حضر للوداع أن أسمع البكاء والنحيب، وقال دهشت كامل الدهشة حين وجدتهم ينحنون في هدوء ويرفعون قبعاتهم في إجلال وإكبار وهدوء مملوء بالرزانة لهذا الجيش الذي حمل آمالهم وأمانيهم .

ومن المعروف أن أول جنود أمريكان وصلوا إلى اليابان كان سنة ١٩٤٥بعد الاستسلام في الحرب العالمية قد صدمتهم طريقة استقبال الشعب الياباني لهم لأنهم استقبلوهم بجفاوة مبالغ فيها، فهؤلاء المستقبلون كانوا قبل أيام قليلة على استعداد للموت من أجل الإمبراطور، والآن يستقبلون الغزاة بارتياح وفرحة. ترى هل كانت

فرحة ظاهرية؟ في رأيي أنها كذلك ولكن كانت من درجات ضبط النفس وإخفاء المشاعر التي تعود عليها اليابانيون كثيرا، ولكن لاشك أن هناك الكثير الذي يمكن أن تتعلمه اليابان من الغرب وهناك أيضا الكثير الذي يستطيع أن يتعلمه الغرب من اليابان، إن جانبا من هذه المعرفة يكون مدخلا للتفاصيل الخاصة بثقافة اليابان في ضبط النفس ورقابتها والالتزام بهما وترسيخهما في نفس الصغار والكبار على حد سواء، ولكي نفهم ثقافة اليابان في هذه الفضيلة يجب أن نبدأ بفترة مبكرة قليلا أي قبل زمن كنفوشيوس، إذ أن الماضي مرتبط ارتباطا وثيقا بالحاضر ويجب أن نأخذ في اعتبارنا كبار المفكرين، لأنهم لعبوا دورا رئيسيا في تكوين الصورة التي نناقشها الآن، إن فلسفة (أسبينوزا) ربما أثرت أو لم تؤثر في رجل الشارع في الغرب، ولكن آراء كنفوشيوس ومنشيوس وأكثر الفلسفات تعقيدا مثل فلسفة (تشوانج تزو Chuang Tzu) قد لعبت دورا يمكن إثباته، وله أهمية في تشكيل شخصية البوشيدو واللغة اليابانية غنية بالألفاظ التي تصف هذا التمايز الجوهري فثمة كلمات تدل على الخارجي والداخلي، العام والخاص ،الحقيقة المنطوقة، والحقيقة المضمرة. ولمزيد من الفهم لنتأمل زوجا واحدا من هذه المصطلحات: (Omuteおもて) و (uraうら) وهما الظاهر والباطن أو الصريح والمتضمن أو الواجهة الخلفية والأمامية. بمعنى

أوسع – المكشوف والمخبأ – وفي اليابانية القديمة كانت الكلمتان تعنيان " الواجهة " والذاكرة " وفي اللغة اليومية تعني الشوارع الرئيسية والحواري الخلفية، وهناك من المعاني المألوفة الأخرى الكثير عن الظاهر والباطن والإفصاح والكتمان.

وفي اليابان كان الشأن العام وما يزال هو القيمة الاجتماعية الأسمى، والشأن العام يعد شديد الصلة بالنظام والجماعة، بينما الشأن الخاص فردي، ومن ثم فإن من لا ينتمي إلى جماعة يعد متكتم وأناني ومفسد، ويمكن للمرء أن ينتمي إلى جماعة وتنتمي الجماعة إلى جماعة أكبر، لكن ثمن الانتماء هو إخضاع الشخصية الفردية للجماعة، إخضاع الخاص للعام، وإخضاع الدفين للمعلن.

كان (جوايو رودريجز Joao Rodrigues) في عام ١٥٧٦ راهب يسوعي قد فهم قناع الياباني فهما جيدا لأنه أستقر في اليابان لأكثر من ثلاثين عاما وكان يتحدث اليابانية بطلاقة وهو الذي أكتشف ثلاثة قلوب في جوف الياباني – قلب في فمه وهو مزيف ليراه العالم كله، وقلب آخر بين ضلوعه لأصدقائه، وقلب ثالث في أعمق أعماقه، يدخره لنفسه فقط ولا يبوح بمكنوناته لأي مخلوق، ومن وجهة نظر معينة فتصورنا لليابانيين يدعونا إلى افتراض أن لا إرادية للشخصية اليابانية، هكذا ببساطة – وان اليابانيين مختلفون

على نحو ما عن البشر في أنهم قانعون بالحياة على طريقتهم، بلا أي تمييز بين فرد وآخر[٤٢]"

وأحد التقاليد الجمالية في اليابان والتي تشتهر بها حديقة أحد المعابد في كيوتو، تسمى (みえかくれ Mie Gakure) المرئي والخفي لأن في الحديقة خمسة عشر حجرا ناتئا في كم من الحصى المرتب، ولا توجد طريقة يمكن بها رؤية الحجارة الخمسة عشر جميعها من زاوية واحدة، فأينما تقف يوجد حجر مخبأ، ليس هناك تعبير أدق عن هذا في وصف إظهار المعاني وتخبئة الذات وليس هناك شيء أعتاد اليابانيون على تخبئته أكثر من أنفسهم ودواخلهم ونادرا ما يفصح عن المشاعر الإنسانية داخله (にんじょう Ninjoo) إلا أن العواطف نقية وبريئة وهو ما يجعل اليابانيين حين يظهرونها يبدون منفعلين بشكل طفولي، لهذا يلاحظ أن الياباني يعيش نوعا من الأزمة في علاقاته بالعالم الخارجي .الحياة في اليابان تتكون من سلسلة مما هو مقبول وما هو مرفوض، لا توجد استثناءات، وليست رياضة (すもう Sumo) وهي المصارعة التقليدية في اليابان التي يقال إن تاريخ بدايتها يرجع لسنة ٢٣ قل الميلاد، ما هي إلا احتفالا طقسيا للتمييز بين ما يحتضن وما يستبعد، إن المصارعين يجلسان القرفصاء ويحدقان، وتقريبا ليس

[٤٢] المرجع السابق.

هناك ما يمكن مشاهدته، لأن المباراة لا تستمر أكثر من دقيقة أو اثنتين، وغالبا لا تزيد عن ثوان، وما يهم هو النتيجة، فمباراة السومو لا ينتج عنها فائز وخاسر بقدر ما ينتج عنها تغيير في المواقع، فالمهزوم هو الذي يتمكن الأخر من دفعه خارج الدائرة .

الحواجز التي يعيش فيها اليابانيون محيطة وتامة ولا تمكنهم من رؤية أشد ما تكون إبهاما لحياة من دونهم، ونأخذ مثلا بسيطا عند السؤال عن عنوان من شخص ما لشخص ياباني يمكن ان يكشف العزلة الخاصة التي خلفتها عادة الاختباء والإخفاء في قلب الحياة اليابانية، فمن غير المألوف تماما أن تجد شخصا على استعداد للإجابة، ولكن من المعتاد في اليابان تجاهل السائل تماما كما لو لم يبدر منه أي سؤال، وكأن السائل ليس له أي حضور – كأنه شبح ربما لا يكون هذا تصرفا ينم عن سلوك مهذب بقدر ما هو إقرار بأنه ليس ثمة قلب بين السائل والمسئول، وحتى لو توقف أحد المارة وأبدى استعداد للمساعدة تجده لا يعرف شيئا عن مبنى أو شارع على بعد مائة ياردة منه، ببساطة لأنه ليس جزء من العالم الصغير الذي يعيش فيه.

وقد تدهش لو حضرت أحد مقابلات طلب وظيفة فتجد المسئول الياباني عن المقابلة يسأل المتقدمين لشغل الوظيفة عن نوع فصيلة الدم، والدهشة الأكثر في التفسير، لأنهم يعتقدون أن من

الأفضل إلا يجتمع عدة أشخاص في مكان عمل واحد تتباين نوعية فصيلة دمائهم، وترى بعض الصحف تطالب بإقامة حكومة جديدة غير التي تحكم لكون أعضائها من فصيلة دم A أو B أو C أو فصائل دم أخرى.

خيط طويل وممتد في تاريخ اليابان وحينما نصف اليابانيين اليوم فإننا لانفعل أكثر من تسجيل الوضوح والأهمية الجديدة التي يكتسبها هذا الخيط من نسيج الأحداث التاريخية، إنه نوع من التوتر الدائم بين الحرية والانتماء بين الجماعة والاستقلالية وهو جزء مما أسميناه التاريخ المخبأ. [٤٣] "

[٤٣] المرجع السابق.